

الفصل الأول

التاريخ: المفهوم والمحتوى

مفهوم التاريخ

مراحل التاريخ

علم التاريخ

مكانة علم التاريخ بين العلوم الأخرى

موقف المؤرخ من التاريخ

الفصل الأول التاريخ: المفهوم والمحتوى

مفهوم التاريخ:

اجتهد المؤرخون القدامي والمحدثون في تعريف التاريخ، وقدموا آراءهم مدعمة بوجهات نظرهم، كل يحاول أن يدلي بدلوه في هذا المجال، لكن المؤرخ الحديث يجد نفسه أمام كم هائل من الآراء والتعريفات والاصطلاحات وعليه أن يحدد موقفه تجاهها.

إن محاولة صادقة للتعريف بالتاريخ لا بد وأن تخرج بالمؤرخ إلى مجالات أرحب وأفاق أوسع ليحرر نفسه من أغلال وإطارات وضعها الإنسان يحدد به مكاناً معيناً وزماناً بذاته يربط بها المؤرخ نفسه، ومع ذلك لا بد لنا من أن نضع أمام الباحثين تجربة الأجيال السابقة مع اجتهادنا في زماننا بما يمليه الفارق الزمني من إضافات ارتبطت بالتغيرات الجوهرية التي تفرض نفسها علي الواقع التاريخي .
والتاريخ دون شك هو حياة الشعوب، ومن ثم فهو نبض حي يتجدد بتجدد حياة المجتمعات، وهو يسجل تفاعل الإنسان مع بيئته، بما يتضمن ذلك من عصارة فكره ونتاج تجاربه وتناغمه مع ما حوله من ظواهر وما يتجدد حوله من ظروف وملابسات .

ومع اكتمال العقل البشري، ونسوج الفكر الإنساني، بدأت النهضات الحقبية لتاريخه، حين وعي الانسان وارتمى من مراحل جمع الطعام والبحث عنه إلى مراحل إنتاج الطعام والاستقرار وإقامة القرى والمدن وصولاً إلى قيام الدولة ومن ثم كان ظهور الحضارة البشرية .

والتاريخ سجل ناطق بالأحداث الي عاشها الإنسان منذ أن بدأ حياته علي الأرض . وإذا كان التاريخ كلمة فهو يعني البداية لأن بداية كل شئ عقلي كانت الكلمة، وبالكلمة المسجلة المدونة بدأ تاريخ الإنسان .

يقول نوح كرامير: إن التاريخ يبدأ في سومر وجعل ذلك عنواناً لكتابه: *History Begins at Sumer* والكتاب في تاريخ العملاق القديم ويتفق معه المؤرخ الانجليزي Arnold Toynbee في كتابه: *A Study of History* إذ يقول: المتخصص في تاريخ العراق القديم وبالذات في التاريخ السومري هو احسن المتخصصين في التاريخ ذلك أنه بإمكانه أن يجدنا بمعلومات عن بداية كل شئ في تاريخ الإنسان وعن الاصول والاولئل في كل فن من الفنون وهو بهذا يقدم إجابة مقنعة ترضي الباحثين وتجب عن سؤال الإنسان الدائم في بحثه عن الاولئل في تاريخ الحضارة (١) وتأتي تساؤلات صمويل نوح كرامير التي هي في واقع الأمر تساؤلات كل باحث عن الاصول التاريخية لنشأة الحضارة الإنسانية، وهي بالإضافة إلى ذلك تعين في تعميق التعريف بمفهوم التاريخ فيقول: إن سؤال الإنسان الدائم بل إن السؤال الملح هو: من هم الاولئل في تاريخ الحضارة البشرية. وي طرح صمويل نوح كرامير أسئلته كالتالي:

- = ماهي أول أفكار الإنسان الأخلاقية؟
- = ما هي أفكاره الدينية؟
- = ما هي آراؤه السياسية؟
- = ما هي فلسفته الاجتماعية؟
- = كيف كانت تواريخه الأولي؟
- = كيف كانت أساطيره الأولي، ملاحمه، أناشيده؟
- = كيف صاغ أول عقد قانوني؟
- = من هو أول مصلح اجتماعي؟
- = متي كان أول تحصيل للضرائب؟
- = من هو أول مشروع قانوني؟

(1) S. Noah Kramer , *History begins at Sumer* p 13

= متي كان أول اجتماع عام؟ وماذا كان هدفه؟

= كيف كانت مدارس الانسان الاولي؟

= كيف كانت مناهجها؟

= ومن هم تلامذتها؟

ويري نوح كريمير أن المتخصص في التاريخ السومري هو أقدر المتخصصين علي الإجابة علي تلك الأسئلة لأنه يقابل ويصادف إجابات لها خلال دراسة ومناقشته للنصوص القديمة المسجلة علي ألواح الطين المكتوبة بالخط السومري. (1)

إن الاجابة علي تلك الاسئلة تمكن الدارس من التوصل الي نتيجة مفادها أن التاريخ يعني حياة الإنسان علي الأرض منذ بدأ التدوين سواء في سومر بالعراق القديم حيث دون مراحل حياته بالخط المسماري أو في مصر القديمة التي اخترع فيها الانسان الكتابة المصرية القديمة المدونه بالهيروغليفية أي المقدسة .

ولنا أن نسأل هل يبدأ التاريخ بظهور أول نظام سياسي مستقر أو بقيام الحكومة الأولى في حياة المجتمعات؟ أو أن التاريخ يبدأ بقيام أول مجتمع بشري منظم سواء في شكل أسرة كبيرة أو قبيلة أو قرية أو مدينة، ثم من مجموع تلك الأسر والقبائل والقرى والمدن قامت الدولة الأولى في تاريخ الإنسان؟

وهل التاريخ يعني نشأة الإنسان وتطوره مرتبطاً بماضيه بمعنى أن التاريخ يدرس حوادث الماضي ولا يعني بالحاضر أو المستقبل؟ ورغم ظهور تفسيرات جديدة وقياساً علي تاريخ وتجارب الإنسان يمكن أن يدرس التاريخ باعتباره أحداث الماضي من أجل حاضر أفضل ومستقبل أكثر رخاء وازدهاراً.

وهنا يؤكد كريمير أنه لكي يتسني للإنسان أن يبني مستقبلاً أكثر إشراقاً وأعظم تطوراً من حاضرة يتوجب عليه دراسة الماضي بكل أبعاده وتجاربه ومشكلاته وقضاياها، وما جرى من حروب وخلافات ومنازعات وماشهده الانسان من ظواهر طبيعية متغيرة وهجرات سليمة أو عدائية ليخرج من ذلك كله بما يجعله يؤمن

(1) Samuel noah Kramer. History begins at Sumer. pp 13 14.

حاضرة القريب ويعد لمستقبل أفضل .

وقد استطاع الإنسان خلال فترات تاريخه الطويل أن يسجل تلك الأحداث ليجعل منها فصلاً رائعاً في كتاب يشفي غليل للباحثين عن الحقيقة ويعينهم علي التوصل إلي فهم أفضل لتاريخ البشرية .

والتاريخ يمثل المعاناة التي لاقاها العقل البشري الذي مارس كل أنواع التجارب مما يجعل المؤرخ يقف أمامها حائراً ذلك أنه مهما حاول استقراء الماضي أو استرجاع أحداثه، ومهما بذل من جهد في تخيلها أو تصورها فإن المعاناة الحقيقية للإنسان ستظل أكبر من أي تصور قد يرقى إليه فكر المؤرخ وإحساسه .

إن المؤرخ الانجليزي Arnold Tounbee صاحب نظرية التحدي والاستجابة حاول أن يتمثل معاناة الانسان فصاغها علي شكل تحديات عنيفة واجهها الإنسان القديم في كل ما كان حوله من ظلام وبرد وحيوانات متوحشة وطوفان وريلازل ومجاعات إلي غير ذلك من الظواهر الطبيعية أو حروب ودمار من صنع الإنسان فتكون مجابهة الإنسان لذلك كله بالاستجابة .

إن نظرية التحدي والاستجابة Challenge and Response التي وضعها Toynbee تؤكد مدي فهم هذا المؤرخ لتفاعل الإنسان مع بيئته، والتحدي لم يكن في كل الأحوال سلبياً بمعنى أن يأتي ذلك التحدي بالضرر علي الإنسان، كما أنه ليس بالضرورة أن تكون الاستجابة سلبية فحين عرف الإنسان طوفان الأنهار كانت الاستجابة لذلك بالتفكير في إقامة السدود، وحين تمثلت التحديات في الحروب والدمار، بدأ الإنسان يفكر في السلام، وحين كان التحديات متمثلة في الجوع فكر الإنسان في البحث عن طعام، وحين كانت متمثلة في التجول والترحال كانت مجابهة الإنسان لذلك بالبحث عن الاستقرار ومن ثم كان لتلك النظرية دورها في فهم تطور البناء الحضاري للمجتمعات البشرية .

ويري Toynbee: أن الفكر التاريخي فكر نسبي: Relative . كما يرى أن دراسة

التاريخ في أي مكان وفي أي مجتمع شأنها شأن أية أنشطة اجتماعية أخرى يحكمها عاملان الزمان والمكان. وفي العالم الغربي الحديث فإن الذي يتحكم فيها ويتسيد عليها هما مؤسستان الأروما النظام الصناعي والديمقراطية، الأولي اقتصادية، والثانية سياسية، وتأتي سيادتهما علي المجتمع الغربي من أنهما يجدان الحلول لكثير من مشكلاته وأن المجتمع الغربي يجد فيهما الخلاص.

ويضيف: إن وجود هذين النظامين يؤكدان علي القوة الخلاقة لدي الأجداد وأن الأبناء يعيشون تحت ظلالهما ويظهر تأثيرهما جلياً في كل عمل أقدم عليه المؤرخون. (١)

مراحل التاريخ:

ينقسم التاريخ اصطلاحاً الي مراحل أساسية، هي في واقع الأمر تقسيمات نظرية تسهل علي الباحثين التخصص والدراسة، وتضم هذه التقسيمات التاريخ القديم الذي يشمل تاريخ ما قبل التاريخ، والعصور التاريخية في الشرق حيث يتضمن ذلك التقسيم تاريخ الشرق الأدنى القديم، وتاريخ الشرق الأقصى القديم، وتدخل في هذا تخصيصات كثيرة منها تاريخ المصريين، والتاريخ السومري، والآشوريات، والبابليين بالإضافة إلي تاريخ الهند والصين وتاريخ إيران القديم أما في الغرب فيتضمن تاريخ اليونان القديم، وتاريخ الرومان القديم هذا بالإضافة إلي دراسة اللغات القديمة، والآثار القديمة ويأتي بعد ذلك التاريخ الوسيط ويشمل المرحلة المتوسطة في التاريخ في أوروبا والشرق الأدنى ثم التاريخ الإسلامي الذي يتبعه التاريخ الحديث والمعاصر

وهذه التقسيمات علي كل حال تقسيمات نظرية تقبل التعديل والاضافة وذلك بالرغم من استمرارها بين الباحثين والمشتغلين بالتاريخ، وسوف يكون

(1) Tynbee, A study of History vol. I. 1-2

النموذج الذي نطبق عليه هذه الدراسة هو مصر وتاريخها القديم.

تتفق المدارس التاريخية علي التقسيمات القائلة بما قبل التاريخ Pre History

وما قبل التاريخ Proto History ثم العصر التاريخي Historical Age ويبدأ العصر التاريخي في مصر بقيام أول نظام سياسي مستقر، وهو ما يسمي اصطلاحاً بالعصر الشيني، ويشمل الأسرتين الأولى والثانية المصريتين ويلي ذلك عصر الازدهار الحضاري والاستقرار السياسي وهو ما يسمي تاريخياً بعصر الدولة القديمة أو عصر بناء الأهرام، ويلي ذلك في تقسيمات التاريخ المصري القديم عصر الفوضى والاضمحلال الأول أو عصر الانتقال الأول وهنا لا بد من وقفة لتسجيل بعض ما شهدته مصر من أحداث في ذلك الوقت وكيف يمكن أن يعقب عصر الاستقرار السياسي والازدهار الحضاري عصر من الاضمحلال والسقوط والفوضى وهنا يجب أن نطرح الأسئلة الآتية: وما هي العوامل التي أدت إلي ذلك، وما هي تلك الظروف التي أججت في نفس المصري الثورة لتكون أول ثورة اجتماعية في تاريخ الإنسان، يوم يتمرد الفلاح المصري ويرفض الاعتراف بسلطة الملك الذي لا يستطع أن يوفر له الأمان في حياته اليومية ولا يستطيع أن يحمي حياته وحرية في كسب قوت يومه، ثم ما هي النتائج التي ترتبت علي ذلك ؟.

وبعد عصر الانتقال الأول يأتي عصر جديد من الاستقرار السياسي ذلك هو عصر الدولة الوسطي، وهنا تطبق نظرية ابن خلدون التي تقول: إن الحضارة الإنسانية تبدأ وليدة ثم تنمو وتكتمل إلي أن تصل إلي مرحلة النضوج وهنا يأتي دور أصحاب هذه الحضارة في تعريض قمتها وترسيخ جذورها لتستقر علي القمة أطول فترة ممكنة فإذا هزمت تلك الحضارة وشاخت دب التفكك في أوصالها وتمزق بناؤها السياسي والاجتماعي واهتز كيانها الاقتصادي فتصدعت، فما بالنا إن كان ذلك كله في داخل تلك الحضارة، إذن يكون النذير بانهارها وزوالها. (١)

وتستمر الدولة الوسطي في حكم مصر الموحدة المستقلة ليتبع ذلك عصر

(١) انظر ابن خلدون: المقدمة ص ص ٩٠٤

آخر من الفوضى والاضمحلال أو عصر الانتقال الثاني وفيه تتعرض مصر لغزو الهكسوس، وتعيش فترة من التمزق السياسي والفوضى السياسية والضعف الاقتصادي إلي أن يبرز فيها محرر ومخلص للبلاد من الفوضى والفساد لتعود لمصر مكانتها في الشرق الأدنى القديم فكان كامس ومن بعده أحمس وشعب مصر من ورائهما ليتصروا علي الهكسوس ويعيدوا لمصر كرامتها وحريتها ولتقوم الدولة الحديثة في مصر القديمة ولتنبئ مصر أول امبراطورية يعرفها التاريخ يكون لمصر فيها سيادة العالم وريادته في تلك العصور السحيقة.

ويأتي علي مصر عصر آخر من التفكك تشهد فيه أنواعاً من الحكم الأجنبي الليبي والنوبي واليوناني مما يوضح الضعف السياسي الذي عانت منه الأسر الحاكمة في مصر في تلك الفترة المعروفة بالعصر المتأخر.

ويقسم المؤرخون الأسرات المصرية إلي ثلاثين أسرة تنتهي بدخول الاسكندر الأكبر لتلتقي فيها حضارة الشرق وحضارة الغرب ويمتزج الفكر الإنساني فيها لتظهر حضارة جديدة وعصر تاريخي جديد.

والتاريخ البشري ليس مجرد سرد للأحداث الهامة وغير الهامة، وليس مجرد تسجيل لظواهر طبيعية، إنما التاريخ الحقيقي هو نتاج العقول البشرية يقف دليلاً علي وجودها، ومرآة لوجدانها فمن أعظم ما يدل علي عمق الفكر عند الإنسان القديم وخاصة في مصر حرصه علي البحث الدائم عن الحقيقة الأولى في حياة الإنسان وهي الموت، إن الميلاد ميلاد أي شئ أسهل في الاستيعاب والاقتناع من الموت، وعلي الرغم من أن الإنسان منذ بدء الخليقة وإلي أن يرث الله الأرض ومن عليها سبظل حائراً مكتوف الأيدي متضائلاً أمام تلك الحقيقة الكبرى ومع التقدم الهائل في التقنيات الحديثة سبظل الإنسان عاجزاً عن الوقوف علي كنه الموت وحقيقته.

والإنسان المصري القديم وضع لذلك أعظم ملحمة في تاريخه بل يمكن القول إنها أعظم الملاحم في تاريخ الفكر الإنساني ذلك هو كتاب الموتى

Book of The Dead وهذا الكتاب يحوي نصوص المقابر المصرية القديمة أو بالاحري النصوص الجنائزية وهو يصور المصري القديم الذي استطاع التوصل إلى الحقيقة القائلة بأن الروح لا تفنى ولا تموت .

The soul is an etrnal being which under no curcumstances could die. (1)

ومنذ المراحل التاريخية الأولى للمصري القديم توضح النصوص المحفوظة عنه مدى قناعته وإيمانه بالبعث والخلود وأن ثمة مكان ما ينعم فيه الإنسان الخير بالسعادة الأبدية .

وعلي أية حال فإن البحث عن الخلود من العلامات المميزة لتاريخ الفكر الديني لدى الشعوب القديمة فملحمة جلجامش في العراق التي تعبر عن مستوي راق من الفكر البشري والتي تسبق ملحمتي هوميرو الألياذة والأوديسا بأكثر من ألف وخمسمائة عام تمثل مرحلة هامة في عمر الفكر الانساني، ذلك أن جلجامش هو الباحث عن الحقيقة، الباحث عن الحياة، الباحث عن الخلود، والخلود يمثل الغاية النهائية عنده (٢) .

ولقد أثارَت هذه القضية كثيرين في المنطقة حتى أن ملحمة جلجامش قد ترجمت إلى لغات عديدة منها الهندوأوروبية والحديثة وحتى في عصور لاحقة وجدت ترجمات لها في اللغة الكنعانية والفلسطينية .

إن هذه الملحمة كما يراها علماء الآثار مثل هنري فرنكفورت تمثل العقلية العراقية القديمة دائمة الخوف من المجهول، ذلك الخوف الذي أنتجته البيئة العراقية كثيرة التقلبات التي حين تهاجم الإنسان لا تبقى ولا تذر وخاصة تلك الطوفانات التي تميزت بها المنطقة .

إن جلجامش الملك أو الشخصية الأسطورية تمثل تلك العقلية الخائفة المترددة الباحثة عن الشهرة والسلطة والثائرة علي القوانين التي تفرق الأحباب والأصدقاء ،

(1). Sir wallis Budge, Book of the Dead, London 1969.

(٢) . رشيد الناصوري . التطور التاريخي للفكر الديني ص ١٢٠ .

وتحتم البحث عن حقيقة الموت. (١).

هذا بالإضافة إلى ما قدم المصريون القدماء في هذا المجال مما يعد أعظم دليل على التفاعل الفكري بين الإنسان والظواهر الكونية التي تحيط به .
والتاريخ هو العمر العقلي للإنسان ممثلاً في كافة المظاهر الحضارية والعمرائية التي خلفها علي الأرض، وليس معني ذلك أن ينسي المؤرخ تتابع الاحداث أو ترتيبها الزمني أو الاشخاص المؤثرين فيها أو العصور السياسية التي صنعت فيها تلك الاحداث .

علم التاريخ:

قضية طرحت للمناقشة منذ قرون طويلة، وتجددت في بداية هذا القرن، تدور محاورها حول التاريخ من حيث كونه علماً من العلوم، وقد أسهم العلماء المسلمون في ذلك إسهامات عظيمة عرضوا فيها لأرائهم حول التاريخ الذي لم يكن من العلوم العقلية، ولا من العلوم النقلية بل يأخذ مركز الوسطية بينهما ومن ثم أصبح له ذاتية مستقلة أخذ ينمو ويتطور علي مر العصور كما أخذت أبوابه تتسع وتنوع ليخرج من مجرد كونه سرداً لاحداث مضت أو تاريخ للعالم منذ أقدم العصور، إلي أقبان تخصصية اتقن فنونها المؤرخون المسلمون ومن بعدهم مؤرخون العالم .

وكان الاستاذ J.B. Bury قد أعاد هذه القضية إلي الأذهان بحيث شغلت المشتغلين بالتاريخ حين أعلن في إحدى محاضراته بأن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل وكان ذلك في مطلع هذا القرن وبالتحديد في عام ١٩١٣ م (٢).
وتبع هذه الفكرة في منتصف القرن سينوبوس الذي أكد ذلك بقوله: التاريخ

(1) N. K. Sandars, The Epic of Gilgamesh, pp.11.12

(٢) هرشور. علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١.

علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة علم علي كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث عن نوع واحد معين من الوقائع، فهو علم الوقائع التي تتصل بالأخبار عن الناس في مجتمع خلال توالي الأزمنة في الماضي (١)

وأمام هذه القضية انقسم المحدثون علي أنفسهم فمنهم من نحس لها ومنهم من سفه آراء القائلين بها، أما الفريق الأول فبني رأيه علي أن المنهج المتبع في البحث التاريخي يرقى به إلي أن يكون علماً قائماً بذاته، وأما الفريق الثاني فقد عارض هذه الفكرة علي أساس أن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم الطبيعية أو التجريبية، ولعله من المفيد هنا أن نذكر رأي الاقتصادي الإنجليزي جيفونز Jevons صاحب كتاب Principles of Science الذي قال: من السخف أن نفكر في التاريخ علي أنه علم بالمعني الصحيح.

لقد فجر الأستاذ بيوري Bury خلافاً حاداً بين المؤرخين والعلماء والفلاسفة وصل إلي حد الخصومة، التي يمكننا أن نقول أنها علي كل حال أسهمت في ظهور عدد كبير من الآراء التي أفادت ولا شك البحث التاريخي كما أفادت الباحثين فيه. وإذا كان هناك من عرف العلم علي أنه: المعرفة المنظمة المبسوبة المقتنة، إذن فمن هذا المنطلق يكون التاريخ علماً من العلوم.

والتاريخ من حيث هو علم يختلف أصلاً عن العلوم الفيزيقية إذ أنه ليس علم معاينة أو تجربة لكنه علم نقد وتحقيق، وكما يقول المؤرخ الألماني درويسن J.S. Droy son إن التاريخ لا يبحث فقط في الأشياء التي مضت وانقطع وجودها، ولكن في الأشياء التي لا تزال موجودة، سواء أكانت روايات عما وقع أم بقايا أشياء وجدت أم نتائج أحداث حدثت.

ويبقى السؤال هل يمكن للمؤرخ أن يضع نفسه في عداد العلماء التجريبيين

(١) عبد الرحمن بدوي، النقد التاريخي، الكويت ١٩٧٧، ص ٥. وسيويوس C. Seignobis، الأستاذ المؤرخ الفرنسي قد اشترك مع لانجلوا C.Y. Langlois في وضع كتاب Introduction aux Etudes Historiques.

باعتبار أن التاريخ وهو مجال عمله فرع من فروع العلم والمعرفة؟ وهل يمكن أن يكون التاريخ علماً من العلوم شأنه في ذلك شأن العلوم التجريبية كالطبيعة والطب والفلك والنبات والكيمياء وغيرها؟

نورد فنقرر أن فريقاً من العلماء ذهبوا إلى القول بأن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً من العلوم لأنه يعجز عن إخضاع الرقائع التاريخية لما يخضع له العلم من المعاينة والملاحظة والفحص والاختبار والتجربة وبذلك فلا يمكن أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية يقينية ثابتة علي نحو ما هو حاصل في العلوم التجريبية.

وما يبعد صفة العلم بهذه الصورة عن التاريخ أي كونه علماً تجريبياً قيام عنصر المصادفة وتدخل عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ علي أسس علمية. (١)

وإذا كنا لا نستطيع أن نعد التاريخ من العلوم التجريبية فليس في إمكاننا أن ننفي عن صفة العلم؛ وفي هذا السياق يري هرنشو أنه علم نقد وتحقيق، وبالتالي فهو ليس علم تجربة واختبار وهنا يعقد مقارنه بين علم التاريخ وعلم الجيولوجيا فكلاهما يدرس الإنسان علي الأرض ويتفاعل مع المخلفات البشرية كأدلة وأسانيد لما يتوصل إليه من استنتاجات. (٢)

ومهما يكن من أمر فقد سبق المؤرخون المسلمون في إثارة هذه القضية ومناقشتها، وقد توصلوا فيها إلي آراء عظيمة لا بد وأن تكون هي الأصل الذي تفجر عن اهتمام المحدثين بإعادة النظر فيها وطرح آراء جديدة حولها هدفاً إلي الوصول إلي نتائج جديدة تثري عملية التفكير التاريخي بوجه عام.

مكانه علم التاريخ بين العلوم الأخرى:

القضية إذن ومنذ عصور قديمة هي تحديد مكانة التاريخ بين العلوم، هل هو

(١) قارن حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ص ١٦
(٢) انظر هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ص ص ٤٠٣

علم أم غير ذلك؟

يقول الشمس الباعوني الدمشقي في كتابه تحفة الظرفاء في تاريخ الملوك والخلفاء: إن التاريخ علم سامية شرفه، عالية بين الأنام غرفه، وفيه ما فيه من المنافع، حتي لقد قال الإمام الشافعي في خبر قد صح عنه نقله: من حفظ التاريخ زاد عقله.

ووصفة البرزالي فقال: هو من أحسن العلوم وأشهاها، وأجل الفوائد وأبهاها، وأكمل المحاضرات وأزهاها، لأنه سبيل إلي الاعتبار ومنهج يعين علي الاستبصار، وتحفة تريك من مضي من الأمم عياناً، ونزهة تشرح للمطالع فيه قلباً وتبسط لساناً.

وعرفة ابن حزم بأنه علم الأخبار، بينما يفرق ابن جماعة بين علم التاريخ وعلم الطبقات.

ويقول الشمس السخاوي في كتابة التبر المسبوك: إن علم التاريخ فن من فنون الحديث النبوي، ورين تقر به العيون حيث سلك فيه المنهج القويم المستوي، بل وقعه من الدين عظيم، ونفعه متين في الشرع، بشهرته غني عن مزيد البيان والتفهيم إذ يعلم به أهل الجلالة والرسوخ ما يفهم الناسخ من المنسوخ. (١)

ويطلق المقرئزي علي التاريخ اصطلاح علم الأخبار في كتابه الخطط فيقول: به عرفت الشرائع التي شرعها الله وحفظت سنن أنبيائه ورسله ودون هداهم الذي يقتدي به من وفق الله الي عبادته. (٢)

وبواسطة علم الأخبار استطاع بنو البشر معرفة ما دونوه من العلوم والصنائع وتأتي لهم ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأقطار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله.

وذهب أهل الأدب إلي القول بأن التاريخ سواء اعتبره أهله علماء من العلوم فهو دون شك فن من الفنون ويؤكد هذا المؤرخون المسلمون، فيري الكمال

(١). السخاوي: التبر المسبوك. ص ١١

(٢) المقرئزي: الخطط ج ١ ص ٤

الأدفي: أن التاريخ فن من الفنون يحتاج إليه وتشديد يد الضمانة عليه إذ به يعرف الخلف أحوال السلف . (١)

واعتبره الموفق أبو الحسن الخزرجي صاحب تاريخ اليمن فنا أهمله الناس، مع شدة احتياجهم إليه، وتعويلهم في كثير من الأمور عليه.

وتناول المؤرخون المسلمون تعريفات التاريخ فقالوا: إن التاريخ في اللغة يعني الإعلام بالوقت يقال أرخت الكتاب وورخته أي بينت وقت كتابته. (٢)

ويقول أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتاب الخراج: تاريخ كل شئٍ آخره فيؤرخون بالوقت الذي وقعت فيه حوادث مشهورة بينما يقول الصولي تاريخ كل شئٍ غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه (٣)

ويقول الصفدي: والتاريخ للزمان مرآة، وتراجم العالم للمشاركة في المشاهدة مرقاه، وأخبار الماضين لمن عاقر الهموم ملهاة وأما عن تعريفه الاصطلاحي فهو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال، وأنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيثة التعيين والتوقيت. (٤)

وأما موضوعه فهو الإنسان والزمان، أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للإنسان وفي الزمان.

ويقول العماد الأصفهاني: إن التواريخ معنادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى، وأما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى، فلا أمة من الأمم ذوات الملل، وذوات الدول إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، يتقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تفيد به شوارد الأيام وتنصب به معالم الأعلام. ويوضح العماد فضل التاريخ فيقول: لولا التاريخ

(١) الكمال الأدفي. الطالع السيد ص ٣

(٢) السحابي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٦٠٦

(٣) السحابي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٧

(٤) الصندي الوافي بالوفيات ج ١ ص ٤

لانقطعت الوصل، وجهلت الدول، ومات في أيام الآخر ذكر الاول، ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاضلة، ولقل الاعتبار بمآلة العواقب وعقوبتها، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها. (١)

ويؤكد علي هذا الشمس السخاوي فيقول: أما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها، ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التي يعلم بها النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المعتذر. الجمع بينهما، وزاد في ذلك فقال عن سفيان الثوري: لما استعمل الرواه الكذب استعملت لهم التاريخ، وعن حسان بن زيد قال: لم يستعن علي الكذابين بمثل التاريخ. (٢) ..

وأما تعريفه الاصطلاحي فهو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأصول، وأنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم

موقف المؤرخ من التاريخ:

وهكذا كان للمؤرخين المسلمين موقف محدد من التاريخ من حيث ماهيته وموضوعه وتعريفه ومجالاته، لكن القول الفصل ما زال يخضع لمزيد من الدراسة، وما زال يقبل الجديد من الآراء فمن رأي أن التاريخ علم من العلوم يتحمل دون شك مسئولية هذا الاستتاج ومن اعتبره علماً من العلوم دلت علي رأيه بما يدعمه ويقويه.

لكننا نري أن التاريخ علم في حدود ما تتيحه الدراسة المنهجية وطرق البحث

(١) العماد الكاتب الاصفهاني . الفتح القدسي ص ٤٣ : ٤٤

(٢) السخاوي: المصدر السابق ص ٩

العلمي لموضوع من موضوعاته واتباع الأسلوب العلمي المقنن في دراسته، ولما كان التاريخ لا يصنع ولا ينتج في المعامل ومراكز الأبحاث العلمية فهو من ناحية أخرى فن من الفنون تظهر فيه لمسات الإنسان المؤرخ الذي يخرج الصورة التاريخية وينشئ البنيان التاريخي مما يظهر أراد إم أبي أحاسيسه وانطباعاته في تفسير الأحداث ومناقشة القضايا التي يناولها.

ولنضرب مثلاً علي ذلك فنقول: إن المؤرخ المسلم وهو يكتب سيرة رسول الله ﷺ أو حين يسجل أحداث الصراع بين الشرق والغرب ممثلاً في الحروب الصليبية سوف يتأثر دون شك بعقيدته ناهيك عن الظروف المحيطة به والملابسات التي تحيط كتابته، وبفس القدر سيكون هذا صحيحاً بالنسبة للمؤرخ المسيحي الذي يكتب تاريخاً لأوروبا أو يؤرخ للحرب الصليبية.

وعلي هذا فيمكن لنا أن نقول أن التاريخ مزيج من العلم والفن أو هو حلقة وصل بين العلم والفن، وأنه علم له خصائصه المميّزة له عن أي علم تجريبي يخضع لمقاييس خاصة تنتهي بالباحث إلي التوصل إلي قوانين ثابتة أو لحقائق غير قابلة للتغيير، فالمعروف أن قوانين العلوم التجريبية قوانين يقينية ثابتة، وهنا يصدق القول بأن التاريخ مزاج من العلم والأدب والفن.^(١)

وتحتم الدراسة أن تناقش في هذا المجال قضية الموضوعية والحياد مما يشغل بال المؤرخين في كل زمان، إذ هل من الممكن أن يصل المؤرخ إلي درجة من الموضوعية يلغي فيها ذاته ومشاعره وإحساساته وانفعالاته وانتماءاته ليتجرد في مناقشة قضية وطنية أو دينية أو ثقافية أو مبدئية تجرداً حقيقياً Objectivity.

وعلي الرغم من صعوبة الوصول إلي نتائج نهائية في مناقشة قضية التاريخ بين الموضوعية والذاتية فإن عرضها هنا للدراسة وطرحها أمام الباحثين يفتح مجالاً للحوار والتفاهم هدفاً للوصول إلي لقاء مشترك أو أرضية مشتركة تجمع المؤرخين حولها للتصدي والبحث والتأمل من أجل رؤية جديدة.

(١) فارن مرنشو : علم التاريخ . ص ٢٢ .

وقد ذكرنا سابقاً أن الموضوعية مطلب صعب المنال، وإذا هدف المؤرخ إلي ذلك فعليه أن يدرك مسبقاً أنه اختار أن يسلك طريقاً صعبة، وأن عليه أن يقطع شوطاً من المعاناة والتعب المضني والبذل المستمر، والتجرد الموضوعي مع علمه مسبقاً بأنه قد ينجح في الوصول إلي مرتبة قريبة منها أو قد لا ينجح علي الإطلاق.

والمعتقد أن كثيراً من المؤرخين يشتركون في الرأي القائل بأن الموضوعية المطلقة غير ممكنة التحقيق، ذلك أن المؤرخ إنسان، والعدل المطلق فوق طاقات الإنسان إلا ما تحدده الشريعة في أمور بعينها.

والمؤرخ إنسان له دائماً آراء وأفكار وانتماءات وعواطف ومشاعر بالإضافة إلي ثقافته وتدريبه وكل هذا يلح عليه ولا يستطيع التخلص منه نهائياً حتي ولو فعل ذلك لفترة فإذا تعود للإلحاح عليه في فترات أخرى.

وسوف تظل قضية الموضوعية قضية جدلية علي مر العصور، ولا يمكن فيما يتعلق بالتاريخ حسمها بشكل نهائي يرضي العقول التزهية التي تؤمن بها.

ولذلك سيظل الباب مفتوحاً دائماً لقبول النقد والتعديل والجرح وصولاً إلي الهدف الأسمى وهو تحقيق الموضوعية ولو علي الأقل الموضوعية النسبية التي ترتبط بالإنسان والزمان والمكان، وبينهما تقف الحقيقة التاريخية التي ستظل دائماً تخضع لتفسيرات جديدة تتفق وتقدم البحث العلمي في التاريخ وتظهر أدلة أو أدوات جديدة تعين الباحثين في عملهم.

إن المؤرخ كالرسام يضع إطاراً عاماً للفكرة التاريخية وفي نطاق ذلك الإطار يبدأ في وضع تفصيلات القضية التي يناقشها وهي تضارع صورة الفنان الذي يوضح ما يري توضيحه مركزاً علي جوانب معينة منها مسلطاً الأضواء علي ما يعتقد أنه الحقيقة ويقدم ما تحت يديه من أدلة وقد يحكم أو يترك الحكم لمن يأتي بعده؛ وهو في كل الأحوال يستلهم الحقيقة ويستشرف الأوضاع السابقة التي يفصل بينه وبينها آلاف السنين.

وتحاول المدارس التاريخية الحديثة التواصل مع المدارس التاريخية القديمة في وضع الأسس المنهجية لدراسة التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه، السياسي والاجتماعي والاقتصادي، الديني والمذهبي والمعدّي، العام والإقليمي إلى غير ذلك من الأنواع التي يمكن أن يضمها التاريخ الإنساني.

وقد استطاعت هذه المدارس علي اختلاف علمائها واختلاف مشاربهم وأهوائهم ومذاهبهم أن تنجح في الوصول بالتاريخ إلى مستوي العلم المقنن القائم علي أصول منهجية وتخليصه من إطار الأسطورة والخيال القصصى.

وإننا نعول علي المدارس الحديثة في أن تواصل عملها تحقيقا للمزيد من الرقي بعلم التاريخ أو فن التاريخ أو التاريخ علي إطلاقه ليقف علي قدم وساق في مصاف الدراسات الجادة الواعية القائمة علي منهجية العلم وأساليب التدقيق والتحقيق والتوثيق ليدخل التاريخ بذلك مصاف العلوم النقدية ذات القيمة الاجتماعية العظيمة.

وإن المسئولية الملقاة علي عاتق المؤرخين المسلمين المحدثين كبيرة وتزداد خطورة من أجل الحفاظ علي مكانة علم التاريخ وتطوير وسائل البحث فيه ليكون الهدف الأسمى هو الوصول إلي الحقيقة بأكبر قدر من الموضوعية.